النقد
في شعر ابن خفاجة الأندلسي
إتجاهاتُه وملامحُه

ألأستاذ المساعد الدكتور
إسماعيل عباس جاسم
الجامعة المستنصرية
كلية ألآداب
قسم اللغة العربية

الرموز ودلالاتها

ق= رقم القصيدة
جـ= جزء
م جـ= مجلّد
س ف= سفر
ق س= قسم
ك ب= كتاب
×= الهامش الاول
××= الهامش الثاني
×××= الهامش الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد حين يقف القارئ بين يدي ديوان ابن خفاجة لا يجد نفسه ألّا وهي تطوف بين حدائق وقبول ،وزهرمطلول ،مترنِمة على اجنحة السّرور لاهية فوق مسارح الحسن والجمال .

فهي انّى ادارت مقلتها لاتجد ألّا سماءً قد اكبّت ودقها فالقحت البسيطة شيحا ونرجساً، وقد تهادت إليها كل مرنَةٍ فوق سرحتها ،وتغنَت بها كلُ ساجعة عند ربوتها ، وافصحت بلابلها خطباءَ على ايكها شادية بين افنانها وهي تناجي رّبة الشِعر بلفظ سلسل وقولٍ يؤثر.وهاانا اقف بين يدي ابن خفاجة ،شاعر الاندلس وجنّانها ، وبُلبلها الغِريد تاخذني الحيرة بين فنٍ تخشعُ له القلوب ، وجمال تصدع من سحره النفوس ، وبحرٍ لايُدرك ساجيه من مائره ، ولا اوّله من اخره .لقد انفقت سنوات طوالاً من خزانة حياتي وانا اتنقّل بين ازاهير الديوان ومازلت كذلك ، وفي النفس ظمأ ، وفي اللُب حاجات لاحول لي عليها ولا طول بين كؤوسٍ تدور ، وحدائق وسرور ،وعصافير تغنِي ، وسرح تتلوّى فوق غوارب النسيم.

وفي رحاب هذه الجنّات الفينانة التي تعدّدت الوانها واختلفت مسالكها ترعرعت فكرة هذا البحث حتى استوسقت واثمرت فكانت (النقد في شعر ابن خفاجة الاندلسي اتجاهاته وملامحه) ان ظاهرة النقد في شعر هذا الرجل تفتح بابا واسعاًعلى عوالم النقد ولكن ليس بشكل مطلق لأننا نجده يجمل ويوجز ،ويعمّم في الكثير من احكامه إذ انها تُبنى على اساس من الذوق الشخصي العابر الذي لايقوم على قواعد فنية وانما على البديهة الحاضرة في الأعم الاغلب . وفي احيان اخرى وهي قليلة نلقاه يوغل في اعماق الاصول والاسس النقدية فيثير مسائل عميقة في النقد لها اهميتها عند النقاد ثم ينتهي هذا الامر باصدار حكمه على قصيدته.ان نقد الشعر عند ابن خفاجة لا يعني بالضرورة عملية نقدية ذات عمقٍ بعيد اذ هي في الوقت الذي تمثل وجهاً من وجوه النقد في جانبها الأعظم تمثِل ثمرةً اساسيةً من ثمرات هذه العملية . اننا في هذا البحث لاندّعي تفرّداً لابن خفاجة في هذه الظاهرة لأنها ظاهرة واضحة عند غيره من الشعراء على ان ماتفّرد به ابن خفاجة في هذا المجال هو إسرافه البيِن في ولُوجها ، إذ إننا واجدونها في مسالك وشُعب متعدّدة .لقد جاء البحث موزّعاً على مبحثين إثنين سبقهما تمهيد تضّمن الحديث عن نقد الشعرعند المشارقة وعلى الأخص الشعر الجاهلي وما استمرّ من رسومه الى العصرين الاموي والعباسي باعتباره مدرسة الشعر والشعراء.فقد تضمّن المبحث الاول منهما الحديث عن اتجاهات نقد الشعر في جانبين اثنين إذ تطّرق اوّلهما الى التفصيل في الأتجاه الذاتي ، وتصدى ثانيهما للحديث عن الاتجاه الغيري.

اما المبحث الثاني فقد وقف عند ملامح ثلاثة لنقد الشعر كان أوّلها (التعدّد الموضوعي للأبنية)، وجاء ثانيها (التباين في الموضع) في حين إنعقد ثالثهما تحت عنوان (الاختلاف في أُسس النقد).على ان البحث إنتهى بخلاصةٍ تجمل النتائج التي توصّل إليها وبقائمةٍ تضمنت المصادر ،والمراجع التي تمَ إعتمادها في هذا المبحث .

التمهيد

تعد ظاهرة النقد ولاسيما نقد الشعر ظاهرة قديمة،إذ هي ليست وليدة أمس أو اليوم وانما هي وليدة أزمنة توافرت عليها وأعصُرٍ اختلفت فيها.

فالنقد الادبي يقوم(اولاً على الكشفَ عن جوانب النضج الفني في النتاج الأدبي)(١). والنقد من قولهم:(نقدت الدراهم وانتقدتها،اذا اخرجت منها الزيف.والدرهمِ نقدٌ،اي وازنٌ جيدٌ،وناقدت فلاناً،اذا ناقشته في الامر)(٢).ان هذه الظاهرة تمثل نزعةً عقليةً بيّنةً عند العرب،إذ أثر القرآن الكريم ثأثيراً بارزاً في إثارتها،وتأجيجها(٣)،من خلال التنويه بأهمية العلم والحث على طلبه.قال تعالى:(إقرأ بأسم ربك الذي خلق١ خلق ألأنسان من علق٢ إقرأ وربك ألأكرم٣ الذي علّم بالقلم٤ علّم ألأنسان ما لم يعلم٥)(٤). ولأن نقد الشعر نافذة تأملية لابدّ من استعراض جملة من مظاهر نقد الشعر لتكون هذه المظاهر واضحة المعالم عند القارئ.

لقد أهتم العرب بصناعة شعرهم كثيراً،إذ كان من بينهم من ينقد شعره نقداً ذاتياً(٥) كزهير(٦) والنابغة(٧)اللذين كانا يتكلفان إصلاحه،وطفيل الغنوي×الذي كان لِحسن شعره يُعرف بالمحبِّر(٨). ومنهم ايضاً الحطيئة هو ألآخر كان ينقد شعره بنفسه نقداً ذاتياً.

قال أبن قتيبة:(فالمتكلف هو الذي قوّم شعره بالثِقاف ونقّحه بطول التفتيش وأعاد في النظر كزهير والحطيئة××)(٩).

وفي العصور المتأخرة سلك بعض الشعراء الطريقة ذاتها،إذ(قال بعض من نظر بين أبي تمام×××،وأبي الطيب××××:إ'نما حبيب كالقاضي العدل:يضع اللفظة موضعها---وأبو الطيب كالملك الجبار:يأخذ ماحوله قهراً وعنوة---)(١٠).

واذا كان هؤلاء يعمدون الى النقد الذاتي فهناك من يلجأ الى النقد الغيري الذي يبنى على اساس نقد أشعار الغير.

١-النقد ألأدبي الحديث/.٩
٢-الصحاح في اللغة والعلوم،تجديد صحاح العلامة الجوهري، مجـ٢، تقديم العلامة الشيخ عبدالله العلايلي،مادة:نقد/٥٩٩.
٣-الفلسفة في ألأسلام/.٥٢
٤-العلق/.١،٢،٣،٤،٥
٥-من الذات،وهي:(قوام الشخصية ألأنسانية).الفلسفة في ألأسلام/.١٦٥
٦-هو:(زهير بن ربيعة بن قرط والناس ينسبونه إلى مزينة وانما نسبه في غطفان) الشعر والشعراء،طبعة قسطنطينية/.٢٣
٧-هو:(زياد بن معاوية ويكنّى أبا أمامة...ويقال كان النابغة أحسن الناس ديباجة شعر...) الشعر والشعراء، طبعة قسطنطينية/٢٠.
×-هو:(طفيل بن كعب وكان من أوصف العرب للخيل..) الشعر والشعراء،طبعة قسطنطينية/١٠٤.
٨-العمدة،جـ١/١٣٣.
××- هو:(جرول بن أوس من بني قطيعة بن عبس ولُقِّبَ بالحُطيئة لقصره وقربه من ألأرض ويُكنّى أبا مليكة وكان راوية زهير وكان جاهليّاً إسلامياً) الشعر والشعراء،طبعة قسطنطينية/.٦٤
٩- العمدة،جـ١/١٣٣.
×××-(كان أبو تمام طويل باع وكبير قدرة على نظم الشعر..كان أستاذاً للشاعر البحتري..) العمدة،جـ٢/١١٤.
××××-ممن رفعهم الشعر أبو الطيب المتنبي.قا أبن رشيق القيرواني:(وقد خطب.. هذه الرتبة الى كافور فوعده بها...)العمدة،جـ١/٤٥.
١٠-العمدة،جـ١/١١٣.

هذا أبن سلام يروي قول جرير(١)في الفرزدق(٢)حين قال:(نبعة الشعر الفرزدق)(٣). اما في الاندلس فليس بألامكان استبعاد نتاجها الأدبي عن شقيقه المشرقي على الرغم من بعد الشقّة لأن امتداد المكان بالنسبة للقصيدة العربية لا حدود له(٤)،لذلك فأن(السياسي ألاندلسي والعالم الاندلسي،وألأديب ألاندلسي،ظلّوا متطلعين نحو المشرق)(٥)،وليس بدعاً ان ننسب الى ابن خفاجة تأثراً حقيقياً بالمشرق)(٦)،لهذا السبب أو ذاك فإننا سوف لن نتصدى لمزيد من النماذج النقدية ولاسيما الاندلسية ما دمنا قد وضعنا بالحساب درجة تأثرألأندلسيين بالشعر المشرقي. ان هذا الامر لايلغي مالدى الاندلسيين من خصائص فنية تفرّد بها أدبهم بحيث تركت بصماتها على صفحات دواوين عددٍ من الشعراء كان من بينهم شاعرنا ابن خفاجة الذي عُرِفَت عنه ألإجادة في النظم،والنثر(٧)،و التصرّف على وفق الارادة(٨).كما عرف عنه غناه الثقافي من خلال من روى عنهم(٩)،وكذلك من جالسهم(١٠) حتى غدا(عالماً بألآداب صدراً في البلغاء)(١١)،وصاحب نزعةٍ في الشعر ميّزتهُ به من سواه(١٢)،وأفضت الى تأثر الشعراء به(١٣)ولذلك فأننا راغبون عن عرض نماذج من نقد الشعر ألاندلسي في هذا الموضع والتوجه بالدراسة صوب هذه الظاهرة عند ابن خفاجة لكثرتها ووضوحها من خلال مبحثي الاتجاهات والملامح .

١-عدّه ابن سلام من شعراء الطبقة الاولى من الاسلامين.طبقات الشعراء/١١٤.
٢-عدّه ابن سلام ايضاً من شعراء الطبقة الاولى من الاسلامين.المصدر نفسه/.١١٤
٣-طبقات الشعراء/.١١٤
٤-ألاديب وألالتزام/.٩٦
٥-ابن خفاجة،عبدالرحمن جبير/.١٠
٦-حول التأثر والتقليد ينظر:المطرب/١١١،الفن ومذاهبه في الشعر العربي/.٤٤٥
٧-التكملة،جـ١/١٤٣.
٨-قلائد العقيان،ق س٤/١١٦،التكملة،جـ١/.١٤٣
٩-أخبار وتراجم أندلسية/٤٨ ،المصدر نفسه،جـ١/.١٤٣
١٠-التكملة،جـ١/١٤٣.
١١-المصدر نفسه،جـ١/.١٤٣
١٢-منهاج البلغاء/٣٦٦،أزهار الرياض،جـ٢/٩.
١٣-وفيات ألاعيان،جـ١/٥٦.

"المبحث ألاول"
اتجاهاته

الاتجاه الذاتي:

من خلال قراءة متأنية في شعر ابن خفاجة يمكن اكتشاف حقيقة مؤداها ان هناك اتجاهين يتجاذيان شعره ألا وهما ألاتجاه الذاتي، و ألاتجاه الغيري. لقد مرَّ فيما سبق كيف كان شعراء العربية القدامى ينهجون هذين النهجين والذي يهّمنا منهما الآن الاتجاه الذاتي الذي تجلَى بأوضح صورة ممثلة بقول أحد رموز مدرسة عبيد الشعر:(خير الشعر الحولي المنقّح المحكّك)(١).واذا كان الامر كذلك فلا بأس في أن يتأسى ابن خفاجة الشاعر بأسلافه الاجلاّء لينقد شعره لأن الشعر كالبحر أهون مايكون على الجاهل أهول مايكون على العالم ، وأتعب اصحابه قلباً من عرفه حقّ معرفته ، وأهل صناعة الشعر أبصربه من العلماء بآلته من نحوٍ وغريب ،ومثلٍ ،وخبر ،وما أشبه ذلك(٢).ان أهم مايلحظ في شعر النقد الذاتي إرتباطه في معظم الاحوال بقصائد المدح من ذوات المقِدمات (٣)،والخواتيم (٤)،أو من ذوات الخواتيم فقط كما انه ينحو بصورةٍ عامة منحىً ايجابياً اتخذ الشاعر منه وسيلة الى بلوغ غايات واهداف أخرى .فنقد الشعر عنده ليس هو الهدف النهائي وانما هو جسر يستخدمه الشاعر باسلوب وصفي (٥)إلى تحقيق حالة من التكافؤ بينه وبين الممدوح.هذا هو الشاعر ينقد شعره نقداً ذاتياً في خاتمة قصيدة مدح من ذوات المقدِّمات(٦):

سمحَ الخيال على النوى بمزارِ   والصُّبحُ يمسحُ عن جبين نهارِ ١
-----------------------   ---------------------
واليك من حوك البديع قوافياً   هزّ النّشيدُ بها فُتونَ شِفارِ ٩٠
زفَّت أبابكرٍ إليك محاسناً   جاءتك تحمِلُ عُذرةَ الأبكارِ ٩١
فأصخ الى هزَجِ المديح فإنّما   صدحت بأغصانِ السطور قُمارِ ٩٢
هزّت معاطف سامعيها حكمةً   كادت تهزُّ معاطف الاسطارِ ٩٣
مسحتْ جفون الركب من سنة الكرى   ولوتُهمُ طرباً على الاكوارِ ٩٤
ورأتك كفؤاً فانتحتكَ على النوى   والبعد بعدُ الشبهِ لا الأقطارِ ٩٥
فاطلع لروضتها صباحاً نيِّراً   يستضحكُ الأنوار للنوّارِ ٩٦

ولئن وقفنا عند شكل بناء هذه القصيدة لوجدناها تتألف من مقدِّمة في طروق الخَيال(٧) تنتهي

١-الشعر والشعراء،طبعة قسطنطينية/٨.

٢-العمدة،جـ١/١١٧.

٣-حول المقدِّمات ينظر:الشعر والشعراء،طبعة قسطنطينية/٦-٧.

٤-حول الخواتيم،ينظر:كتاب الصناعتين/٥٠٣،البديع في نقد الشعر/٢٨٦،منهاج البلغاء/٢٨٥،٣٠٦،نهاية ألارب،س ف٧/١٣٥،كتاب الطراز،جـ٣/١٨٥،شرح التلخيص/٧١٢،٧١٣.

٥-حول الوصف ينظر:نقد الشعر/١١٨-١١٩،العمدة،جـ٢/٢٩٤-٢٩٥.

٦-ديوان ابن خفاجة،ق/٢.

٧-ظاهرة فنيّة مشرقية من بين من أولع بها(البحتري فأنّه....أكثر وأجاد،وأبدع وتصرّف في معانٍ لم يأتِ أحد بمثلها،وقد أستفتح قصائد كثيرة بذكر الخيال لشدّة شغفه به فأحسن في أبتدآته كلها).الموازنة/١٧٠.

عند البيت الثامن عشر ثم يتواصل غرض المدح لتبدأ الخاتمة في البيت التسعين،وهي عن نقد شعري ذاتي،فالشاعر هنا ينقد شعره بأسلوب مستند الى الوصف خُوط بانٍ والى الفخر كِمَّ وردٍ إذ الحبل بينهما موصول لان الشعر على حدِّ قول أبن رشيق القيرواني(الاّ أقلّه راجع الى باب الوصف)(١)،وعلى رأي أحد المحدثين(مجال من أرحب المجالات الشعرية)(٢)،إذان ما يقوم به الشاعر إنما هو عمل وصفي تحدّث عن واقعةٍ خارج نفسه أو عن عاطفةٍ خاصةٍ(٣).

ان هذا النقد الذي بدأ بكلمة(إليك)،والتي تفيد الطلب إنما أبتدأ وانتهى بوجهٍ ايجابي إذ لم نجد بين ألفاظه ما يشين شعره ذماً بل على العكس من ذلك إننا واجدون من ألحان الثناء فيه ما يشنِّف الاسماع ويلوي الاعناق طرباً على الاكوار،ويهزُّ النفوس.

وأمر طبيعي ان يطري الشاعر شعره ولكن لا عن قصد لذاته إنما لإتخاذه وسيلة لمكافأة الممدوح وهذا نابع من اعتداد ابن خفاجة بشخصيته أملاً في الفوز برضاه.

ولعل ما يزيد أهمية هذا النقد ان الشاعر أوقعه موقع الخاتمة والخاتمة مما يجب رعايته لأنها(آخر ما يعيهِ السمع ويرتسم في النفس)(٤)،ولكونها تجبر(ما عساهُ وقع فيما قبله من التقصير)(٥).

وفي قصيدة أخرى يسلك ابن خفاجة في نقده الذاتي لشعره الطريقة نفسها فبطروق الخيال يقدِّم لمدحته الميمية ثم ينتقل بعد المدح الى نقد الشعر الايجابي في الخاتمة قاصداً به اظهار حالة من التكافؤ بينه وبين الممدوح(٦):

أما وخيالٍ قد أطاف فسلّما   لقد هاجني وجدٌ أناخ فخيَّما ١
------------------   ----------------------
وهاك فأقبلها إليك خريدةً   تهادى على الدّنيا محاسنها لَمى ٥٩
صقيلة ثغر الحسنِ لوانّ أدهما   ترشّفها لارتدَّ ألمظَ أرثما ٦٠
ملأت بها ما بين غربٍ ومشرقٍ   ونوَّرتُ ما بين البسيطة والسَّما ٦١

فالقصيدة تبدأ بمقدّمة في طروق الخيال ايضاً ابتداءً من البيت الاول وانتهاءً بالبيت السادس والثلاثين ثم ألانتقال(٧) في البيت السابع والثلاثين على ان الشاعر ينتقل الى الخاتمة التي تبدأ من البيت التاسع والخمسين وهي متعددة الموضوعات إذ جمع بين نقد الشعر والمدح فكان النقد فاتحة هذه الخاتمة.

لقد استغرق هذا النقد الذي بدأ بالطلب من خلال كلمة(هاك)(٨)ثلاثة ابيات فقط وهو نقد

١-العمدة،جـ٢/٢٩٤.
٢-في الشعر العباسي/.٤٠١
٣-المصدر نفسه/.٤٠١
٤-شرح التلخيص/.٧١٢
٥-المصدر نفسه/٧١٢.
٦-ديوان ابن خفاجة،ق/١٣٠.
٧-حول الانتقالات(ولها أسماء عديدة)،ينظر:عيار الشعر/١٨٤،١٨٧،الموازنة/٣١٣،كتاب الصناعتين/٥١٣-٥١٤،كشف المشكل،م جـ٢،جـ٦/٤٤٥،تحرير التحبير،ك ب٢/٤٣٣-٤٣٤ ، انوار الربيع،جـ٣/٢٤٠.
٨-ورد في همع الهوامع،جـ٢/١٠٥(وها بمعنى خذ وفيها لغتان القصر والمدّ وتستعمل مجردةً فيقال للواحد المذكر وغيره ها وهاء متلوُّها بكاف الخطاب بحسب المخاطب فيقال هاك....).

ذاتي ايجابي لأن ابن خفاجة في هذه المجموعة من الابيات كان بصدد نقد شعره هو

معتمداً في ذلك الوصف والثناء عليه ولعلّنا واجدون جملة من الاوصاف التي تصوّر طبيعة هذا الشعر فالقصيدة خريدة تتهادى على الدنيا بجمالها ورقتّها اذ طبقت الآفاق وأضاءت الوجود حتى لكأنها استحالت من مسموع الى مبصر ولا غرابة في ذلك لأن(أبلغ الوصف ما قلب السمع بصراً)(١)،وأحسنه(ما نعت الشيء حتى يكاد يمثّله عياناً للسامع)(٢) لقد جاء هذا النقد عند ابن خفاجة غير مقصود لذاته بل اتخذ منه الشاعر مجالاً لاظهار قيمته الفنية التي تترك بصماتها على مفردات الحياة المختلفة وصولاً الى بلوغ حالة النديِّة و التكافؤ مع الممدوح بقصد ترغيبه،إذ انه أي الشاعر بعد أن يعرض في مديحه ما عند الممدوح من قيم ومزايا مختلفة كالشجاعة والكرم والعلم...الخ..فأنه يقول:(هاك فاقبلها اليك خريدةً) بأسلوب طلبي لأنها جميلة ورائقة لا تليق الا بك ولئن كانت القصيدة كذلك فمن بابٍ أولى أن يكون قائلها في موضع تقدير و رعاية.

ان الشاعر أظهر براعة وقدرة في أختيار الخاتمة منفذاً هاماً يطلُّ منه على مناحي القصيدة جميعها لما لهذه الخاتمة من أهمية لأنها(الغاية المقصودة،والبغية المطلوبة)(٣)،ولأنها تكون(كأحسن ما أندرج في حشو القصيدة)(٤)طلباً للتأثير في الممدوح.

واذا كان نقد الشعر يرد مرتبطاً في بعض الاحيان بقصائد المدح من ذوات المقدمات والخواتيم فإنه يأتي في أحيان أخرى مرتبطاً بمدائح لا مقدمات لها وتشتمل على خواتيم في أواخرها أي التي يحصل فيها مايعرف بالقطع والبتر والوثب(٥)،لأن من الشعراء(من لا يجعل لكلامه بسطاً من النسيب،بل يهجم على ما يريد مكافحةً)(٦). وربما يكون السبب في ذلك طبيعة العلاقة بين الشاعر والممدوح إذ انه عند ذلك يرفع الحواجز الرسمية ليمدح على وفق ما يريحه.

هذا هو ابن خفاجة يسلك المسلك نفسه في قصيدة مدح ليس لها بسط من النسيب ورد نقد الشعر الذاتي في خاتمتها(٧):

أرأيك أمضى أم حسامك أقطعُ ومرآك أبهى أم حديثُكَ أسمعُ ١
------------------- ----------------
أما وإيادٍ أنطقنـــي بحمدهِ وقد طوّقتني والحمامة تسجعُ ٣٩
لئن هز من أرجاء حمص مسرّةٌ حديث بملقاها إليه يرجَّـعُ ٤٠
لقد نال منّا والخطوبُ ممضّةٌ وشيكُ نواه والحوادث توجعُ ٤١
وفارقني صبري لذكرى فراقه وشافهني قبل الوداع يودِّعُ ٤٢

١-العمدة،جـ٢/ ٢٩٥.
٢-المصدر نفسه،جـ٢/ ٥٩٤.
٣-كتاب الطراز،جـ٣/ ١٨٥.
٤-منهاج البلغاء/ ٢٨٥.
٥-العمدة،جـ١/ ٢٣١.
٦-المصدر نفسه،جـ١/ ٢٣١.
٧-ديوان ابن خفاجة،ق/٤٩.

وكنت جمادَ العين أجهلُ ماالبكي فعلّمني داعي النوى كيف تدمعُ ٤٣
فأستودع الله الأمير ومهجـة أشيِّعُها فيمن هُناك أشيِّـعُ ٤٤
وهُنِّيتَها مِن دارِ مـلكٍ وهُنِّئت بهِ ملكاً والله يعطي ويمـنعُ ٤٥

هنا يباشر ابن خفاجة نقده لشعره في البيت التاسع والثلاثين وهو بداية الخاتمة وانتهى في البيت الأربعين بعد أن فرغ من المديح وشارف على أنتهاء القصيدة. ان اهم ما يلاحظ في هذا النقد انه جاء قصيراً وربما يكون ذلك بسبب كون القصيدة بتراء خالية من التقديم بالنسيب وقد يكون لطبيعة الظروف المحيطة بقول القصيدة دور فاعل في هذا القصر.

لقد نقد ابن خفاجة شعره نقداً ذاتياً بعد أن وصف نفسه بالحمامة الساجعة مؤكّداً ذلك من خلال اللجوء الى ألاستفتاح والقَسَم بقوله(أَما وأياد....)(١)، إذ إنّ هذا النقد مثّلته حالة الثناء الايجابي على شعره التي انتظمها سلك الوصف النابع من أعماق الشاعر ليصل الى درجة يتلوّن فيها الوصف بأحاسيسه وليكون مقصوداً لمعنىً في ذاته(٢).

فالشاعر هو الحمامة والثناء هو السجع الذي يغادر أرضه الى حمص مطوّفاً في أرجائها على أجنحة السرور باثاً في كلِّ جانب منها هزَّة فرح ومسرّة حديث ليعود نديّاً مزهراً الى حيث أنطلق.لقد جاء نقد الشاعر لقصيدته لا لتحسين صورتها في نظر الممدوح أصلاً وانما لترغيبه وكسب رضاه.قال ابن رشيق القيرواني:(ولا يجوز للشاعر كما لا يجوز لغيره ـ أن يكون معجباً بنفسه مثنياً على شعره وانْ كان جيداً في ذاته حسناً عند سامعه....وقد قال الله عزّ وجل(فلا تزكّوا أنفسكم)اللهم الا ان يريد الشاعر ترغيب الممدوح او ترهيبه فيثني على نفسه ويذكر فضل قصيدته)(٣)

وفي مثال آخر يرِد النقد الذاتي في مدائحِ من غير ذوات المقدّمات مع الخواتيم أيضاً(٤):

لذكرك ما عبَّ الخليج يصفِّق   وباسمك ما غنّى الحمام المطوّقُ ١
---------------------   -------------------
فخذْها كما حيّت بها الهند مِسْكةً   تعطّرُ انفاسَ الـرواة فتعبَقُ ٤٥
وعنبرةً شهبــاءَ تحملُ نفحةً   تنفّسُ في صـدر النّدي فتُنشَقُ ٤٦
تشبُّ لها نفس الحسود فكلّما   رأى هذه تذكـى رأى تلك تُحرَق ٤٧
أسلتُ بها في جبهة البدر غرّة   جرى الحُسنُ ماءً فوقها يترقرقً ٤٨
ترنُّ بها الركبان شرقاً ومغرباً   فَتُشَئِم طـوراً بالثناء وتغرقُ ٤٩
وحسبُك من شعرٍ يـكاد لدونةً   يُغَنّي به النبت الهشيم فيورقُ ٥٠
فيا دوحة العلياء حيّتك روضة   عليها رداء للرّبيـع منمَّقُ ٥١
لها من صقيل النوَر ثغرٌ مفلّجٌ   يشوق ومن سجع الحمامة منطِقُ ٥٢
وها أنا أقربك السلام على النوى   مع الريح تندى أو مع الطيف يطرقُ ٥٣

يلاحظ في القصيدة ان الشاعر لم يجعل لغرضه بسطاً من النسيب بل هجم عليه مباشرة إذ يطول المديح الى نهاية البيت الرابع والاربعين وعند ذاك يدخل في نقد شعره الذي يبدأ من البيت الخامس والاربعين وهو بداية الخاتمة وينتهي بنهاية البيت الثاني والخمسين وفيه يلحظ ان هذا النقد انما هو نقد ذاتي فالشاعر كان بصدد ذكر محاسن قصيدته هو كما انه إيجابي لأن وصفه لشعره قائم على الثناء والاطراء وليس هناك من شرح في هذا الوصف يقدح بقيمة القصيدة.

١-قال ابن هشام الانصاري بخصوص(أما)بالفتح والتخفيف:(ان تكون حرف استفتاح بمنزلة ألا،وتكثر قبل القسم)مغني اللبيب،جـ١/. ٥٤.
٢-نظرات جديدة في الفن الشعري،جـ٢/. ١٧٦.
٣-العمدة،جـ١/. ٢٠١.
٤-ديوان ابن خفاجة،ق/١٣٩.

لقد افتتح ابن خفاجة نقده لشعره بأسلوب طلبي ومما يدل على ذلك استعمال كلمة(فخذها)،اذ ان هذا الطلب المقترن بالنقد جاء مشوباً بالثناء على الممدوح وفي ذلك ما فيه من براعةٍ وحسن إجادة لأنّ براعة الطلب إنمّا تحسنُ وتظهر عندما تكون الفاظه(مقترنةً بتعظيم الممدوح)(١).

ان هذا النقد لمْ يكن مقصوداً لذاته هو وانّما كان وسيلة من وسائل الترغيب وكسب رضا الممدوح فضلاً عن رغبة الشاعر في اظهار نفسه واعتداده بها. ولأجل ان يوجّه الشاعر نظر الممدوح الى نقد شعره كي يحقق ما يصبو اليه رغبةً في الوصول الى بلوغ رجائه وأمله لجأ الى وضع هذا النقد في خاتمة القصيدة،وهو خيرموضع فيها لأن(خير الكلام ما وقف عند مقاطعه)(٢).

الاتجاه الغيري:

وهو الاتجاه الثاني الذي يمكن تلمسُّه في نقد الشعر عند ابن خفاجة الذي ينقد فيه شعر غيره،ولعل من اهم ما يلحظ فيه انه يرد عموماً في المراجعات الشعرية والمجاوبات وفي القصائد(٣)من غير ذوات المقدِّمات وكذلك في المقطوعات الشعرية كما يكون ايجابياً مقصوداً على الارجح.لقد كان ابن خفاجة على جانب كبير من الثقافة والمعرفة في الادب نظماً و نثراً لكونه صدراً في الكتاب وعلماً في البلغاء وصاحب ديوان مشهورٍ متنافسٍ فيه وأستاذاً بارزاً وعنوان نزعةٍ فنيّةٍ معروفةٍ باسمه.لهذا كله كان الجُلّة من الناس يرجونه نقد اشعارهم لعلمهم بما هو عليه من قدرة على الصنعة الشعرية وتمكُّن من معرفة الغثِّ من السمين(٤).

هذا هو يجاوب فتىً من أهل النبل عن نظم ونثر له(٥):

يالين عطفي واخضرار جنابي   لرفيف آدابٍ وماء شبابِ ١
راقا ورقّا فالتقى بهما معاً   ثغر الحباب وأوجه ألاحباب ٢
فسجَعتُ ثمَّ حمامةً ومن المنى   انّي استعرتُ لها جناح غُرابِ ٣
وسكرتُ سكري قهوةٍ وشبيبةٍ   وسحبتُ من ذيلي هوىً وتصابِ ٤
وأما وطبعك إنّهُ لمبرِّزٌ   في حلبة الشعراء والكتابِ ٥
متخايل في صدر كلُّ جريدةٍ   لقصيدةٍ وكتيبةٍ لكتابِ ٦

لقد صدر هذا النقد عن فيض شعري وخاطر دفّاق وعقل دقيق وقّاد في نمط بنائي يعرف عند النقّاد بالمقطوعة،إذ ان الشاعر(عند المحاضرات والمنازعات والتمثيل والملح احوج اليها منه الى الطوال)(٦)،لذا فان ابن خفاجة جنح الى استعمال هذا النمط البنائي(٧)في نقده

١-نهاية ألارب،س ف٧/.١٣٥
٢-كتاب الصناعتين/.٥٠٢
٣-قال ابن رشيق القيرواني مشيراً الى عدد أبياتها:(إذا بلغت الابيات سبعة فهي قصيدة) العمدة،جـ١/.١٨٨
٤-ينظر حول هذا الموضوع:أخبار وتراجم أندلسية/٤٦،التكملة،جـ١/١٤٣،وفيات الاعيان،جـ١/٥٦،أزهار الرياض،جـ٢/٩،نفح الطيب،جـ٥/٣٥.
٥-ديوان ابن خفاجة،ق/.١٨٠
٦-العمدة،جـ١/.١٨٦
٧-حول ابنية القصيدة العربية ينظر:العمدة،جـ١/١٨٦-١٨٩،دراسات نقدية في الادب العربي/٨.

لشعر هذا الفتى.ولعل ما يلحظ في هذا النقد كونه غيرياً لانه كان بصدد شعر الغير،وهو ايجابي إذ انه ليس بوسعنا ان نستشف أيَّ أثرٍ سلبي في نقد ابن خفاجة لشعر صاحبه وها نحن لانجد في ابيات مقطوعته سوى الثناء الذي ساقه بأسلوب وصفي.فالقصيدة المنقودة رائقة رقيقة ذات

حسن ورفيف أدب جعلت من قائلها مبرِّزاً في حلبة الشعر والكتاب وعنواناً لكلِّ القصائد والكتائب والكتب.ان هذا الوصف النقدي إنما يمثل حكماً ايجابياً على النص،ولقد اكّد الشاعر ذلك في البيت الخامس بالاستفتاح والقسم الوارد في قوله(وأما وطبعك)(١) كما ان القصدية واضحة في نقد الشعر لأن ابن خفاجة ما كان ينقد قصيدته لأجل المدح أو غيره وانّما قام بذلك لأجل النقد ليس إلاّ.ولعل ما يعزز هذا الامر ما ورد في صدر القصيدة من انّ الشاعر(قال يجاوب فتىً...عن نظم ونثرٍ له)(٢)،ولاسيما وان هذا الفتى كما يبدو من اصدقائه وخاصته الذين تربطهم به علاقة حميمةً.ومرة ثانية يراجع وزيراً(٣)عن شعر له(٤):

أنفحة طيبٍ مـا تنسّمت   أم نظم   وفضلة كأسٍ ما ترشفتُ   أم ظلمُ ١
خطيرٌ من الشعر اشتملتُ   ببرده   وقد بزَّ جسمي بُردةَ الصحة   السُّقمُ ٢
يكاد يشفُّ الطرسُ عن نور   حسنه   وما فضّ في صدر النّدي   له ختْمُ ٣
تفجّرَ فيه الطبع فجــراً   وانّما   أطلّ به من كلِّ قافيةٍ   نــجمُ ٤
ولو ان سمعاً ثَمَّ يصغي لمــا   درى   أبيتُ يروّى أمْ يراش بــه   سهْمُ ٥
شفاني وقد اشفى الضنَّى بي على   الردى   وبعض الكلام الحر يشفى به الكلمُ ٦
فقّبلتُ كفَّاً أتحفنـــــي   بعلقهِ   وَحقَّ لكأس الراح أن يكرمَ   الكرمُ ٧
وعانقت عنواناً هنــاك   قرأتُه   وقلت الاّ ليت المسمّى هو   الاسمُ ٨
أبــــا جعفرٍ لله درُّك   فارساً   بحيث سطورُ الشعر خيلٌ لهُ   دهمُ ٩
يجول ملّياً ليس ينبــو   بطبعهِ   فتورٌ ولا يكبــو بخاطره   وهمُ ١٠
ألا طوّقت تلك اللآلــئ   مقلّدي   ولا عجب أنْ جاد باللؤلؤ   اليمُّ ١١
وعندي لما أهديت مـن   كلِّ فقرةٍ   لسانٌ به رطبٌ وحـبٌّ   لــه جَمُّ ١٢
وعذراً إلى عُلياك انّـي   بحـالةٍ   تعفّى بها رسم القريض فلا   رسمُ ١٣
فها انا نـهبٌ للشكايــا   كـأنّما   لكلِّ سقامٍ من قوى جسدي   قسمُ ١٤

--------------------   --------------------

--------------------   -------------------- ١٨

واضح ان القصيدة ليست من ذوات المقدِّمات وقد جاء نقد الشعر فيها أبتداءً من البيت الاول وانتهاءً بالبيت الثاني عشر،والغيرية فيه واضحة لأن الشاعر ما كان بصدد نقد شعره هو وانما كان بصدد نقد شعر الغير،كما ان النَّفس الايجابي ظاهر في هذه المجموعة من الابيات.فأبن خفاجة يحاور في شعر هذا الوزير أهو نفحات طيب أم شعر أم أنه خمرة كأس أم ثنايا غانية،ثم يستقر ابن خفاجة ليرى فيه شعراً خطيراً مشعِّاً يتفجَّرفيه الطبع ويشفي السّقم وينتظم كعقود اللآلئ وهكذا تتوالى على لسان ابن خفاجة اطباق من الفاظ الثناء والاطراء التي تدخل ضمن إطار النقد الذي يتجّه إتجاهاً إيجابياً إذ اننا غير واجدين من الفاظ القدح والانتقاص في هذا النقد ما يقلّل من قيمته الفنية.أما على صعيد الهدف المبتغى من النقد فأن الشاعر لا يرجو المدح أوّلاً وانما يرجو النقد وعلى هذا الاساس فان القصيدة واضحة

١-مغني اللبيب،جـ١/.٥٤
٢-ديوان ابن خفاجة،ق/.١٨٠
٣-هو:الوزير أبو جعفر بن سعدون.ديوان ابن خفاجة/.٢٨٦
٤-ديوان ابن خفاجة،ق/٢٢٦.

في هذا النقد لأنها هدف وغاية الشاعر.

وفي مرّةٍ ثالثة يكتب مجاوباً أحد زملائه(١)عن شعر له ورد عليه في العروض والروي(٢):

أبرّكَ أمْ ماءٌ يسحُّ وبستـــانُ   وذكرُكَ أمْ راحٌ تُدار وريـحانُ ١
والاّ فما بالي وفودي أشمــطٌ   تلوّيتُ في بردي كأني نشوانُ ٢

وهل هي الا جملة من محاسنٍ   تغايرُ أبصارٌ عليها وآذانُ ٣
بأمثالها من حكمةٍ في بلاغةٍ   تحلّلُ اضغانٌ وترحلُ أظعانُ ٤
وتنظم في نحرِ المعالي قلادةٌ   وتُسحب في نادي المفاخر أردانُ ٥
كلام كما استشرفت جيد جدايةٍ   وفُصِّل ياقوت هناك ومرجانُ ٦
تَدَفق ماءُ الطبع فيهِ تدفُّقاً   فجاء كما يصفو على النار عِقيانُ ٧
أتاني يرفُّ النوّر فيه نضارةً   ويكرع منه في الغمامة ظمآنُ ٨
وتأخذ عنه صنعة الشعر بابلٌ   وتلوي إليه أخدع الصبِّ بُغدانُ ٩
وجدتُ به ريح الشباب لدونةً   ودون صَبا ريح الشبيبة أزمانُ ١٠
وشاق الى تفاح لبنان نفحةٌ   وهيهات من أرض الجزيرة لبنانُ ١١
فهل ترد الاستاذ عنّي تحيَّةٌ   تسير كما عاطى الزجاجة نُدمانُ ١٢
تهشُّ إليها روضةُ الحَزْنِ سحرةً   ويثني إليها من معاطفه البانُ ١٣
تحمَّلها حَمْل السّفير بنفسج   تحمَّلهُ حملَ السَّريرة سوسانُ ١٤

إذ يتضح ان القصيدة آنفة الذكر انّما هي ضرب من ضروب المجاوبات التي تبادلها ابن خفاجة مع الغير وهي تفتح الباب على مصراعيه لنقد الشعر الغيري لا لنقد الشعر الذاتي لأن الشاعر كان بصدد وصف شعر صاحبه الذي ينتهي به الى المدح وعند ذاك يكون النقد مستنداً الى الوصف وهو ما حصل فعلاً لأن الاغراض جميعها ترجع الى غرض الوصف(٣) ان ابن خفاجة باشر نقد شعر صاحبه بعرضٍ سيلٍ من الاوصاف إذ انه أكّد هذا المعنى بقوله(وهل هي إلاّ جملة من محاسن....)،ففيه الحكمة والبلاغة وهو قلادة المعالي والكلام الياقوت،المتدفّق ماءً،العجيب في الصنعة،التفاحي في نفحته....

لقد أتى الشاعر بكثير من معاني الوصف التي ركّب بها النقد حتى لتكاد في مثل هذه الحال على حدِّ قول النقّاد تمثّل الحسّ وتحكيه(٤).

كما يلاحظ في هذا النقد انه نقد ايجابي إذ لم ترد ايّة اشارةٍ تمثّل قدحاً فيه.وهو مقصود لأن الشاعر ما كان ليتخذ منه باباً من ابواب الاعتداد بالشخصية والرغبة في استرضاء صاحب القصيدة لأن الغاية منها أصلاً هي النقد.واذا كان نقد الشعر ايجابياً فيما سبق من الامثلة فأنّه يكون سلبياً في بعض الاحيان وهو قليل نادر.ومنه قول أبن خفاجة ينقد شعر أحدهم(٥) موقّعاً عليه وقد كتب اليه معرِّضاً فيه بسبِّه(٦):

ومعرِّضٍ لي بالهجاء وهُجرهِ   جاوبته عن شعرهِ في ظهرهِ
فَلَئن نكنْ بألامس قد..×..بهِ   فاليوم أشعاري..×..بشعرهِ

١-هو الاستاذ أبو محمد البطليوسي.ديوان أبن خفاجة/.٩٨
٢-ديوان ابن خفاجة،ق/.٥٣
٣-العمدةجـ٢/.٢٩٤
٤-المصدر نفسه،جـ٢/.١٩٥
٥-هو:(ابن درّاج النحوي).ديوان خفاجة/.٣٥٢
٦-ديوان ابن خفاجة،ق/٢٨٢.
×-تمَّ حذف الكلمة لأنها مما يستقبح ذكره.
××-تمَّ حذف الكلمة لأنها مما يستقبح ذكره.

لقد جاء هذا النقد غيرياً سلبياً على ما داخله من ردّة فعل ربّما تؤثر في مساره النقدي، فهو غيري لأن الشاعر كان بصدد نقد شعر ألآخرين، وهو سلبي لانه وصف مستند الى جملةٍ من الاوصاف السلبية وقد ساقها الشاعر مساق الهجاء.ان الشاعر نزّه نفسه عن الذم بتقليل حاسديه واعدائه لذلك لجا الى استعمال الواو بمعنى(رُبَّ)لأن العرب استعملتها بهذا المعنى(١)بغية تقليل الشئ(٢).

وعليه فأنّه قلَّل الحاسدين وألحَّ في النقد السلبي حين أراد منه الذم من خلال اللجوء الى التأكيد باستعمال القسم(٣)الذي دلّت عليه اللام(٤)الداخلة على(إنْ) الشرطية في قوله(فَلَئن نكن) في البيت الثاني.

١-الاصول في النحو/.٤١٧
٢-المصدر نفسه/.٤١٧
٣-القسم يفيد التأكيد.همع الهوامه،جـ٢/.٤١
٤-وتسمّى(الّلام الموطّئة....لأنها وطّأت لجواب القسم).مغني اللبيب،جـ١/٢٣٥.

المبحث الثاني

ملامحه

التعدد الموضوعي للأبنية:

لعّل من الملامح الفنية في نقد الشعر عند ابن خفاجةالتعدد الموضوعي للأبنية إذ انه قد يطرق النقد منفرداً لوحده او غير منفرد أي مرتبط بموضوع آخر وعندها يكون لكلِ حالةٍ وضعها الخاص بها لعلّة في الدافع الى قول النص الشعري .ان ضآلة الدافع الى قول القصيدة وقلّةاهميته يعني بالتالي مجيء النقد منفرداً في الأعم الأغلب .على ان اهمية الدافع الى النظم وتعاظمه تقود الى ورود النقد مشتركاً في بناء القصيدة مع موضوع آخر مغاير له .فلنستمع الى ابن خفاجة وهو ينقد بدافع بسيط شعراً نقداً غيرياً منفرداً : (١)

لحى الله ابياتاً بعثت ذميمةً   فلو كُنَ اعضاءً لكنَ مخارِجَا ١
معوّجة أسطارهُا وحروفُها   كان بها من بَردِ لفظك فَالَجا ٢
ولا عجبٌ من سُخفهنَ فإنّهُ   إذا ساء فِعلُ المرء ساء نتائجا ٣

إذ يلحظ في النقد ان الشاعر نقد الشعر اجمعه بمعناه وحروفه واسطره ولم يستطرد الى موضوع آخر فيه شيء من البعد عنه .ان السبب في ذلك يعود الى عدم اهتمام الشاعر بالدافع الذي حدا به الى قوله المقطوعة ذاهباً بها مذهب الذم والهجاء والدليل على ذلك ان هذا النقد جاء في مقطوعة من ثلاثة ابيات وهو نمط بنائي قليل الشأن بين الابنية الاخرى المختلفة عند بعض النّقاد حتى انّهم ينتقصون المقطِّع من الشعراء فلا يقولون (فيه بعيد المرامي في الشعر)(٢)،ولهذا اخذ الشاعر بأضعف الحلقات البنائية فاعتمد المقطوعة المذكورة .ولعلّ ما يعزِز هذا الامر ان ديوان ابن خفاجة لم يُشِر الى المهجو الذي قيلت فيه هذه الابيات . وياتي نقد الشعر الذاتي منفرداً بدافع بسيط ايضاً في قصيدة قصيرة حين يقول ملتزماً ما لايلزم (٣):

خذها إليك وانها لـنضيرةٌ   طرأت عليك قليلة النضراءِ ١
حَملتْ وحسُبكَ نفحةً في لفحةٍ   عَبقَ العروس وخجلة العذراءِ ٢
من كلِ وارسةِ القميص كأنّها   نشأت تعلُ بريقةِ الصّفراء ٣
نجمت تروق بها نجوم حسُبها   بالأيكة الخضراء من خضراءِ ٤
وأتتك تسفُر عن وجوه طلقةٍ   وتنوب من لطفٍ عن السفراءِ ٥
يندى بها وجه النّدي وربّما   بسطت هناك أسّرة السَراءِ ٦
فاستضحكت وجه الدُّجى مقطوعةٌ   جَمُلتْ حِمال الغّرة الغَراء ٧
تشدو بها مهموزةٌ ولربّما   هزجتْ تدفَعُ في رويِ الرَاء ٨

إذ يمكننا هنا القول انَه موضوع واحد مثّله هذا النقد الذاتي .

١:ديوان ابن خفاجة ،ق/٢٨٤ .
٢:منهاج البلغاء /٣٢٤ .
٣:ديوان ابن خفاجة ،ق/٢٤ .

فالقصيدة تبدأ من البيت الاوّل،وتنتهي عند البيت الثامن وهي في مجموعها لاتكاد تخرج عن معاني النقد الذي ذهب به الشاعر مذهب الفخر في قصيدة ذات موضوع منفرد ومثل هذه عند النقّاد تعرف بالقصيدة البسيطة.ان الدافع الى صنع هذا النص الشعري هو الافتخار بألابداع الفني الذاتي وهو أمر طبيعي وخاص لاعلاقة له بالغير اذ انّه متعلّق بذات الشاعر فقط ومن هنا فأنّه يمكن القول ان كافة الاعتبارات التي من الممكن ان تربط النص بطرفٍ آخر هي في حكم المعدومة،لذا صار بألامكان القول ببساطة الدافع وقلّة اهميته بحيث اكتفى الشاعر بهذه الصورة التي جاء عليها نقد الشعر.

وفي احيان اخرى يأتي النقد الغيري بدافعٍ مهمٍ مختلطاً بالمدح حين يراجع به أحد الوزراء(١) قائلاً(٢):

متهلّل نسخ الدجى   كافورة   عندي فلاح به الظلام و فاحا ١
في ليلةٍ قلصت عليَّ   ذيولها   فلبست من أمسائها إصباحا ٢
لو لم يقدْ عندي ضياء   غيره   لكفى بشرخ   شبابه مصباحا ٣
سامرتُ منه مجمراً   متنفِساً   فألفتُ نّفاحاً بهِ   لفاحا ٤
ما شبَّ عن طوق الصِبى   يرمي به   حتى تطلَّع يلبسُ   الامداحا ٥
لو كان ألغزَ في هواهُ   للعلى   لكفى بهشَّة وجهه   إفصاحا ٦
حمل الذكاء الى الجدال   وربما   حمل المضاء الى الجلاد سلاحا ٧
يقظٌ إذا ما   جال يوماً فِكرهُ   أورى بهِ قدحاً وفازَ   قداحَا ٨
يجري بميدان   المحاسن مُنشداً   فيفوتُ أنفاسَ الرياح   جماحا ٩
من كلِّ بيتٍ لو   حدا حادٍ به   ليلاً لفاض على الركابِ   صباحا ١٠
هزّاز اعطاف النّدي   كأنما   تُسقى هناك به المعاطفُ   راحا ١١
وصحيفة هزَّ البديع   صحيفةً   منها وثقّف بالسطور   رماحا ١٢
وردتْ تذكِّرني   الحديقةَ نفحةً   وتهزّني هزَّ القضيب   مِرَاحَا ١٣
نفضَ المداد   بمعطفيها دُهمةً   جرت المحاسنُ فوقها   أوضاحا ١٤
فكأن روضاً   بات يفتق نورَهُ   فيها و طاووساً يمُدُّ   جَناحَا ١٥
و إليكها   فامرحْ بها مِنْ خلعةٍ   في عزَّةٍ تطأ الهضاب   بطاحا ١٦
تهفو عليك بها الثّريا   رايةً   وعلى العروس من القصيد وشاحَا ١٧

لقد اشتملت هذه القصيدة على موضوعين اثنين اولهما المديح إذ كان الشاعر بصدده من البيت الاول الى نهاية البيت الثامن.وثانيهما نقد الشعر الغيري الذي شابته أنفاس المديح ايضاً من بدء البيت التاسع الى نهايه القصيدة.

ان سبب هذا التعدّد الذي يمثّل احدى الملامح البارزة في النقد هو أهمية الدافع الى قول هذه القصيدة المركبة(٣)،إذ ان نقد اشعار رجلٍ بهذا المستوى انّما يحتّم على الشاعر ان يتفاعل مع هذه الحال،ولعل مايدلّل على هذه الاهمية ان الشاعر بدأ نقده في هذه المراجعة بمدح هذا الوزير الذي هو صاحب القصيدة المنقودة.

وبسبب ما تقدّم فأن القصيدة بنقدها ومدحها أي بموضوعيها انّما هي أفضل من قصيدة كان موضوعها نقد الشعر فقط سواء في ذلك ما هو ذاتي أو غيري،لأن النص الذي يشتمل على موضوعين اثنين إنما يكون احسن من نصٍ شعري مشتمل على موضوع واحد(٤) لأن تعدّد

١-هو:الوزير أبو عامر بن ينّق.ديوان ابن خفاجة/.٢٨٧

٢-ديوان ابن خفاجة،ق/.٢٢٧

٣-هي:القصيدة التي تشتمل على موضوعين.منهاج البلغاء/٣٠٣.

٤-تسمى القصيدة البسيطة لكونها تشتمل على موضوع واحد.المصدر نفسه/٣٠٣.

الموضوعات(أشدُّ موافقة للنفوس الصحيحة الاذواق)(١)بسبب مالهذه النفوس من ولع(بالافتنان في أنحاء الكلام)(٢)وعلى هذا الاساس فأنّه بالامكان القول ان الاهمية البالغة للدافع الذي حدا بالشاعر الى كتابة هذه القصيدة وراء التعددية التي أتاحت بدورها تشكيل نصٍ شعري بهذا المستوى .

وأخيرا يأتي النقد الذاتي وبدافع مهم أيضاً مختلطاً مع موضوع العتاب ولنقف عند هذه القصيدة متأملين فيها هذا ألأمر حين قالَ ابن خفاجة وقد بلغه عن صديق له نال منه فكتب بها إليه (٣) :

خذْها يرنُ بها الجواد   صهيلا   وتسيلُ ماءً في الحُسام صَقيلا ١
بسّامةً تصبي الأريب   وسامةً   لولا المشيب لسمتُها تقبيلا ٢

حمّلتُها شوقاً إليك تحـيةً   حّمـلتُها عَتْباً عليك ثقيلا ٣
من كل بيتٍ لــو تدفّق طبعُه   ماءً لغـصَ به الفضاءُ مَسيلا ٤
إيهٍ وما بين الجـــوانح غُلَةٌ   لـو كنُت أنقع بالعتاب غَليلا ٥
ما للصديق وقيتَ تـأكل لحمهُ   حّياً وتجعل عِرضـَهُ مِنديلا ٦
أَقبلّتهُ صــدر الحسام وطالما   أضفيته دِرعــاً عليك طويلا ٧
ماذا ثناك عــن الثناء ونشرهِ   بُرداً على الرَسم الجميل جميلا ٨
أرجاً كما عثَر النسيمُ بروضةٍ   لدْنا ً كـما نضح الغمام مَقِيلاَ ٩
أَعدِ التفاتَك وادَركها خِـلةً   لاتستقلُ بها عُلاك مُمِيلا ١٠
وأصخ الى سجع القريض فربَما   ندبَ القريض من الوفاء هديلا ١١
وعُجِ المطيَ على الـوداد وحيِهِ   طللاًعلى حُكم الزّمان مُحِيلا ١٢
------------------   ------------------
وبدهتَ لا نزر َالمحـاسِن مُجبلاً   ومضيتَ لاقضمَ الغرارِ قليلاَ ١٨
متدفّقا أعيى الــعقول طريقةً   فكأنما ركــبَ المجرَسبيلاَ ١٩
يستوقف العُليا حــلالاً كلّما   سجَد اليراع بكفِه تبجيلاَ ٢٠
لا تستنيرُ بــكَ السّيادة غُرّةً   حتى يسيلَ بكَ الندى تحجيلا ٢١
وسواي ينشدُ فـي سواك ندامةً   يــاليتني لمْ اتخذكَ خليلا ٢٢

لقد جاء النقد في صدر القصيدة وقد ضمَّتهُ الابيات الاربعة الاولى أي من البيت الاول وانتهاءً بالبيت الرابع ثم اعقبه موضوع العتاب بدءً من البيت الخامس وانتهاءً بالبيت الثاني والعشرين ان اهمية الدافع الى قول القصيدة هي التي حدت الى هذا التعدد إذ جاء نقد الشعر الذاتي القائم على الفخر الفني مختلطاً ضمن إطار القصيدة الواحد مع موضوع العتاب.

وكما هو معروف لدينا سابقاً فأن القصيدة متعددة الموضوعات انما هي افضل من نظيرتها ذات الموضوع الواحد بسبب من ميل النفوس الى التنويع والترويح.ان ما يؤكد أهمية الدافع الى نظم القصيدة هو الثوران النفسي الهائل الذي اعتمل في نفس الشاعر بسبب ما ناله من أذى لحقه جرّاء تطاول أحد أصدقائه عليه.لذا فأن الشاعر لجأ الى الرّد عتاباً على هذا الصديق من خلال ابراز ما فيه من سمةٍ ألا وهي الشاعرية المتدفّقة بألاسى والالم التي جسّدها شعراً هذا النقد الذاتي.ولعل ما يزيد هذا الامر وضوحاً إفتتاح ابن خفاجة لنقده الشعري بفعل الامر(خُذْ)

١-منهاج البلغاء/٣٠٣.
٢-المصدر نفسه/٣٠٣.
٣-ديوان ابن خفاجة،ق/١٥١.

الذي خرج الى معنى التحدِّي(١).فالشاعر يريد ان يظهر اعتداده بنفسه من خلال ابرز سجاياه ألا وهي السجية الشعرية بأسلوب مستند الى الفخر والتحدِّي واستصغار هذا الصديق الذي لايستحق الانشاد والصداقة.

لقد استغل ابن خفاجة نقد الشعر ليكون الجذوة الاولى للتحمُّل النفسي وليكون الخطوة الاولى بأتجاه الصعود الى الحدود القصوى من العتاب الذي يتجلّى في مجموعة الابيات التي تلت هذا النقد.ان ورود نقد الشعر في هذه القصيدة بما يحمله من معاني الفخر الذاتي الذي يسوقه الشاعر مساق العتاب كونه مدخلا لموضوع العتاب الاساس ومقترناً به انما يمثّل وجهاً من وجوه التعدد الموضوعي الذي يقود بشكل واضح الى صنع قصيدةٍ مركبة ذات سمات فنية ترقى بها على سواها من ذوات الموضوع الواحد التي تسمى القصائد البسيطة.

لذا فأن اقتران نقد الشعر مع غيره من الموضوعات يقود الى بناء نص شعري عالي الجودة ضمن الاطار الفني،تلك الجودة التي يؤسِّس لها هذا الاقتران بينه وبين الموضوعات الاخرى

مما يترتب عليه أهمية بالغة في نظرتنا الى هذا الاقتران او التعدد الموضوعي الذي يدفعنا الى القناعة التامة بأنه واحدٌ من اهم الملامح التي تميِّز نقد الشعر.

ـ التباين في الموضوع :

في قراءة متأنية لشعر ابن خفاجة بقصد استجلاء مواضع نقد الشعر في قصائده، يمكن القول بأختلاف هذه المواضع ليشمل القسم الاعظم منها، فقد يأتي في بعض الاحيان في صدور القصائد ومن البيت الاول ولاسيما في المجاوبات، والمراجعات الشعرية، كما يرد في تخلّصاتها، وخواتيمها، هذا ابن خفاجة يراجع أحد الكتّاب(٢)عن شعرٍ كتب به اليه وقد شغل نقد الشعر الغيري فيه ومن البيت الاول مساحةً ليست بالقليلة(٣):

وحُلّةٍ منْ طراز النظم رائقةٍ   هززتُ بأواً بهـا أعطافَ آمالي ١
من حوك وشّاء برد الخط تحسبه   في الطِرس مشتملاً منهُ بسربالِ ٢
نِضوٌ تمجُ ذُعاف الموت شعبتُهُ   كأنه لهذمٌ في كفِ عسَـــالِ ٣
سحبتُها لابساً بُرد الشباب بها   أجرُ من طربٍ أذيالَ مُختــالِ ٤
فحّبذا نطفة تنساغ باردةٌ   من منهلٍ طامح الآذي سَلْسَالِ ٥
وزهرةٌ غضّةٌ تفترُ عاطرةٌ   من روضةٍ لدنة الانفاس مخضالِ ٦
في ملتقى ربوةٍ للفضل مشرقةٍ   وُمنتحى عارضٍ للطبعِ هطّالِ ٧
فالبسْ بها خلعةً للمجد ضافيةً   طويل باع العُلى والعُمرِ و الحالِ ٨
واردُدْ تحّية نائي العهد مَدَ بما   عاطاك من علقٍ صدقٍ كفَ إجلالِ ٩
شطّت به الدار فاسترعى تحيّتهُ   نسيمَ عاطرةِ الأذيالِ مكســالِ ١٠
تردّدتْ بين أزهار الرُبى سَحَراً   تطيب ما بين إدبارٍ وإقــبالِ ١١

فالنقد شغل معظم القصيدة ،إذ ابتدأ به الشاعر من البيت الاول وانتهى به في نهاية البيت الثامن .ويبدو ان هذا النقد انّما وردَ في هذا الموضع لكونه الموضوع الأساس في القصيدة ومثل هذا يكثر في المراجعات والمجاوبات.ويأتي نقد الشعر أيضاً في التخلّصات.ففي قصيدة مدح تبدأ بمقدّمة يقول فيها ابن خفاجة(٤):

١-لفظ الامر:(يخرج على عشرة اقسام،إلزام،وطلب،وندب،واباحة،وتهدد،وتعجيز،واستهزاء، وتوقيف،وخلق،وتحدٍ....)كشف المشكل،م ج٢،،ج٤/.١٤١

٢-هو:(الكاتب،أبو عبدالله بن عثمان).ديوان ابن خفاجة/.٢٥٥

٣-ديوان ابن خفاجة،ق/.١٩٧

٤-المصدر نفسه،ق/٦٩.

شأوت مطايا الصّبا مطلبا   وطلتُ ثنايا العُلى مرقبا ١
-----------------   ----------------
واعولتُ أندبُ عصراً خلا   وقصُر ابنِ ستين أنْ يندبا ٢٢
وشبّبتُ أطربُ لاعنْ هوىً   وهل يطربُ المرء إن شبَبا ٢٣
لك الخير شختُ سوى مقولٍ   نبيلٍ يذهِبُ مـــا هذبا ٢٤
فطار بذكري ما شئتُهُ   كلام إذا ما طرا أطــربا ٢٥
كلام يجدُ بلـــبِ الفتى   ذهاباً إذا شاء أن يــلعبا ٢٦
تحَمل ما شـــاء من رقَةٍ   فحيّي عن المشرق المغربا ٢٧
وكادَ بما فيه مِـــنْ بلّةٍ   يسومُ الصحيفة أنْ تُعشِبا ٢٨
فلّلهِ قولي مـــا أهذبا   ولله لفظِي مـــا أعذبا ٢٩
ولله زُهرٌ أخـــا سؤددٍ   رسا هضبةً أوسرى كوكبا ٣٠

تصوب السّمـاء اذا ما حَبَا   ويمثل رضوى اذا ما إحتبى ٣١

يلحظ ان نقد الشعر وهو ليس موضوعاً اساسياً جاء في موضع التخلّص إذ استغل الشاعر نقد شعره، وهو يبدأ من البيت الرابع والعشرين وينتهي ببداية البيت الثلاثين استغلّه في التخلّص المتدّرج الذي بلغ وثبته في الانتقال عند البيت التاسع والعشرين والبيت الثلاثين بصورةٍ هادئةٍ ومثل هذا التخلّص الذي لاينتبه السامع فيه (للانتقال من المعنى الاول آلا وقد رسخت ألفاظ المعنى الثاني في السمع، وقرَمعناه في القلب لشدّةِ ألالتئام بينهما)(١) وواضح في نقد الشعر هذا انّ ابن خفاجة عرض في مقدّمة قصيدته هذه عدّة لوحات فنّية منها الحنين و كذلك الشكوى ثم لوحة الفخر الفنِي التي تمثِل نقد الشعر الذي نحن بصدده ان الغاية التي ابتغاها الشاعر من وضع نقد الشعر في موضع التخلُص إنما تِردُ لغرضين أوّلهما شكلي فنيٌ وهو ربط أبعاد القصيدة بعضها ببعض من خلال كونه تخلّصاً، وثانيهما معنوي ألاوهوالاعتداد بنفسه واظهار قوّة شخصيته ومكانته لاسيما وانّه شاخ ولم يبقَ منه سوى لسانه الذرِب أي شعره الجميل-طلباً لكسب رضا الممدوح-الذي طبّق الافاق وغرّدت به ألسُن الطير و تلوّت عليه معاطف الركبان. ويرد نقد الشعر ايضاً في خواتيم قصائد ابن خفاجة كما في خاتمة هذه المدحة التي تبدأ بالبيت الحادي والعشرين وتنتهي بنهاية البيت الثالث والعشرين(٢):

جَفنٌ تجافى للخـلـي عن   الكرى   وهوى تهاوى بالمطيِ على السُرى ١
---------------------   ---------------------
واليكها فاهنأ بــها   من مدحةٍ   أهديتُها نوراً اليكَ منِــورا ٢١
فتلألأت حسناً بمجدكَ   حُــلّةً   وتنفَست طيباً بحــمدكَ مِجمَرَا ٢٢
وسوايَ يكـذب في سواها مدحةً   فارغبْ بسمعكَ عن حديثٍ يُفترى ٢٣

ان نقد الشعر في هذه الخاتمة انّما هو نقد ذاتي إذهو ليس غرضاً اساسياً في القصيدة كما انه ليس مقصوداً لذاته لقد أوقعه الشاعر في هذا الموضع ليحقق مزيَتين اثنتين إحداهما المزية الفنية التي تتجلّى في كون الخاتمة الجزء الاخير من جسد القصيدة الذي يعمل على ربطها إذ بها(يُعلم انتهاء الكلام وقطعه)(٣)وثانيهما المزية المعنوية التي مثّلت اعتداد الشاعر بنفسه لامتيازه بهذه الموهبة الفذّة التي أنجبت هذه القصيدة تزلُفاً الى الممدوح. ويتفنن ابن خفاجة إذ يسلك نقد الشعر في موضعين إثنين حين يكرّره في مفصلين مهمين من مفاصل القصيدة الواحدة ففي قصيدته العينية يأتي به في موضعي التخلّص والخاتمة عندما ينشد

١-انوار الربيع ،جـ٣ /٢٤٠ .
٢-ديوان ابن خفاجة،ق/١٩٨.
٣-كتاب الطراز،جـ٣/١٨٥.

قائلاً(١):

من ليلةٍ للرعدِ فيهـــا صرخةٌ   لا تستطاب وللحـيا إيقاعُ ١
---------------------   ------------------
أفزعت ُمن كلمي على أكبــادهم   قطـراً لهُ اسماعهم أقماعُ ٩
ووصلت ما بيني وبين محــمدٍ   حتّــى كأنا معصم وذراعُ ١٠
وظفرتُ منه على المشيب بصاحبٍ   خلفَ الشبابَ فلي اليهِ◌ِ◌ِ◌ِ◌ِ◌ِ نزاع ١١
--------------------   ------------------
وإليكها غرّاء لـــولا حسنُها   لمْ تُفتقِ الابصارُ و الاسمـاعُ ١٣
عبقتْ بها في كلِّ كــفٍّ زهرةٌ   فُتِقَتْ لها من حسنها اقمـاعُ ١٤

إذ يبدو واضحاً انه سلك بنقد الشعر مسلكين اثنين اولهما مسلك التخلّص الذي استند الى المفارقة في البيتين التاسع والعاشر، وثانيهما مسلك الاختتام حيث تجسّدت الخاتمة في البيتين الثالث عشر والرابع عشر.

لقد جاء نقد الشعر نقداً ذاتياً غير مقصود لذاته وقد كرره الشاعر مرتين في موضعين اثنين للتعبير عمّا في دواخله من دفق نفسي هائل بتجسيده لاعتداده بنفسه الذي يستند على أخص مزية من مزاياه ألا وهي الشاعرية الفذة.فالشاعر في هذه القصيدة أحوج ما يكون الى تكرار نقده الشعري ليزيد من قوّة اعتداده بنفسه لأن التكرار على وفق ما يريد النقاد يفيد التقرير والتعظيم(٢).كما انه(في الشعر مثله في لغة الكلام، يستطيع ان يغني المعنى ويرفعه الى مرتبة الاصالة)(٣).وعليه فأنه يمكن القول إن الثوران النفسي متّصل بتعدد الموضوعات لأن القصيدة تجاذبها موضوعان اساسيان، وهما الهجاء إذ يبدو الشاعر وقد ضاق برماًً بمن هم عوج الطباع، والمدح الذي يظهر فيه ابن خفاجة جذلاً بمن صار معه معصماً وذراعاً.

ان هذين الموضوعين دفعا الشاعر لأن يعتدَّ بشخصيّته ويعبّر عما في نفسه من خلال نقده لشعره، فتارةً تراه يفرغ من كلمه على أكباد خصومه ليطفئ نيرانها، ومرة ثانية يوصل ما بينه وبين محبّه أي ممدوحه.

١-ديوان ابن خفاجة، ق/١٧١.
٢-العمدة، جـ٢/ ٧٥.
٣-قضايا الشعر المعاصر/٢٦٣.

ـ الاختلاف في أسس النقد:

يأخذ نقد الشعر باتجاهيه الذاتي والغيري نمطين اثنين من حيث الاسس التي يعتمدها الشاعر في نقده.ففي النمط الاول لا يلجأ الى الطريقة النقدية المعروفة بنظامها واصولها، إذ يركن ابن خفاجة الى اطلاق التعميمات ذات الصلة بالنقد وفي الغالب لا نكاد نجد مساحة واضحة لومضات نقدية حقيقية وهذا هو الكثير السائد اذ نجده في قصائد المدح(١)، والمراجعات الشعرية(٢)، وبعض الاغراض(٣)الاخرى.اما النمط الثاني فأن القارئ يستطيع أن يتلمّس من خلاله شيئاً من الطرح النقدي لمسائل معروفة في ميدان الادب تناولتها اقلام الدارسين بالنقاش والجدل ذاهبة في جانب منه مذاهب مختلفة، ويمثل هذا النمط القسم الاقل في نقد الشعر عند ابن خفاجة(٤)فمن النمط الاول ما ورد من نقد ذاتي في قصيدة مدح(٥):

أما والتفاتِ الروضِ عن زَرَقِ النهرِ   واشراقِ جيدِ الغُصنِ في حليةِ الزَّهرِ ١
وقد نسمتْ ريحُ النعامى فـنبّهتْ   عيونَ الندامى تحتَ ريحانةِ الفجرِ ٢
--------------------- ----------------------
أبا الطاهرِ اقبلها اليك تحيَّـــةً   ارقتُ عليها سحرةً رونـــق السحّرِ ٦٢
خلعـــــتُ قَوافيها عَليكَ وإنّما   نَظمتُ بها عِقداً نفيساً على نَحْــرِ ٦٣
فَسُدْ وطأ التيجان عزّاً وذُد وجُـدْ   رَحيبَ فناءِ الملك عالي يَدِ الامــرِ ٦٤
طليق لسان السيف والضيف والندى   رفيعُ مَنَارِ القدْرِ والذّكر والفـــخْرِ ٦٥

وفيه ينقد ابن خفاجة شعره في البيت الثاني والستين والبيت الثالث والستين إذ لانراه يعالج شعره بالطرق النقدية القائمة على أُسس معروفة لا بل يذهب في نقده هذا الى أن يحكم على قصيدتة بالجودة من خلال الثناء البالغ الذي قدّمه الى الممدوح مستنداً الى بعض الاوصاف.فشعره تحية زادها بهاء رونق السِّحر وعقد نفيس زانه إنتظامه على نحر.ان المدقق في نقد الشعر هذا لايجد في ابن خفاجة الشاعر الناقد ما يظهر انه بحث عن القوانين الفنية ومعاييرها في هذا النقد بل جاء نقده بطريقة نقدية حكمية وبأسلوب التعميم ان هذه الطريقة الحكمية المباشرة في معالجة النص وان امتازت ببساطتها وسهولتها تمثِّل باباً من ابواب النقد الذي(ستظل له منزلته التي يجب ان يحتلّها)(٦)ويسلك الطريق ذاتها حين يراجع عن شعر ورده(٧):

أطرسك أم ثغْـرٌ تبسَّم واضحٌ   ولفظُكَ أمْ روضٌ تنفّسَ نافح ١
لوانيَ ليَّ الخــيزرانة هـزةً   وتهفو بأعطافِ الكرامِ المدائحُ ٢
كلام يــرفُّ النور في جنبـاته   وتندى به تحت الهجيرِ الجوانحُ ٣
تنَصَّلُ يوم الروع سُمْرُ القنى به   وتُطبعُ منه للجلاد الصّــفائح ٤
يشفُّ سواد النِّقس عنه كما سرى   وراء الدجى برقٌ تطلّع لا محُ ٥

١-ديوان ابن خفاجة،ق/.١٣٠،٦٩،٢
٢-المصدر نفسه،ق/.٢٢٧،١٩٧،١١٩
٣-المصدر نفسه،ق/.١٨٤،٢٤
٤-المصدر نفسه،ق/.١٣٥،٩٩،٥٧
٥-المصدر نفسه،ق/.١
٦-النقد الادبي،جـ١/.٢٠٦
٧-ديوان ابن خفاجة،ق/٣٧.

وانِّي لظمآنٌ اليهِ عـــــلاقةً   وها أنا في بحر البلاغة سابحُ ٥
بعثتَ بها يندى كما طشَّ عارضٌ   ويطربُني طوراً كما حنَّ صادحُ ٦
تلوحُ به في دُهمــة الحِبر غرّةٌ   ويركضُ في شوط الفصاحة سائحُ ٧

فنراه ينقد شعر غيره ابتداءً من البيت الاول وانتهاءً بالبيت الثامن إذ يسرف الشاعر في الثناء والاطراء على شعر صاحبه لينقده مستنداً الى طريقة من النقد الحكمي مؤداها الحكم عليه بالجودة لأن هذا الشعر ثغر بسّام و روضٌ متنفِّس ونغمٌ مطرب وكلام مشرق وبحر من بلاغة.ان طريقة التعامل مع النص الشعري لمْ تكن قائمة على اساس النظرالى الظواهرالادبية ومحاولة إستجلاء القوانين التي شكَّلتها إذ لمْ نجد هناك رصيداً حقيقياً لها او محاولة لتعليلها.
واذا كان ابن خفاجة في النصين الشعريين السابقين قد اعتمد أُسساً بسيطة في نقد الشعر فأنه في نصوص شعرية أخرى يعتمد أسساً نقدية مهمة في هذا النقد من التي كان لها جذور عميقة في ميدان النقد إذ نراه في أحيان أخرى يطرح علينا مسألة نقدية في معرض نقده لشعره.

وهذا هو ابن خفاجة يفخر على ممدوحه بأنه جعل قصيدته الآتية فيه قصيرة(١):

ماذا عليك وقد نأيت ديــارا   لو طاف بي ذاك الخيال فَزَارَا ١
ونظمتُ من قُبَلٍ بصفحةِ جيدهِ   عقداً وقد لَبِسَ العناق شِعَـارا ٢

* * *

أأبا الحسين وما دعوتُ مُصغِّراً   بأبي الحسين وقد دعوتُ كُبارَا ٣٢
أعزِزْ عليَّ وقد حلَلْتَ عَزازةً   بين الجوانح أن شحطت جوارا ٣٣

* * *

طُلتَ المدائح طول اروع ماجدٍ   فسَننتُها حُللاً عليك قِصــارا ٣٩
وكفاكَ انَّك من بدور مـَعَاشرٍ   طلـعوا لأول ليلةٍ أقمــارا ٤٠

* * *

واذا حَنوْتَ ولا سلـوتَ فإنما   أنت القـريب وان شحطتَ ديارا ٤١

لقد نقد ابن خفاجة مدحته هذه في البيت التاسع والثلاثين ووصفها بالجودة لأنها تتسم بالقِصَر وان لمْ تكن قصيرةً جداً، اذ انه اصدر حكمه عليها بالرُقي والجمال ثم علل هذا الحكم حين القى في مسامع ممدوحه انه ألبسه مدائح قصيرة جاعلاً من هذا سنَة متواصلةً.

ان هذه السنَة التي سنّها ابن خفاجة آلا وهي قِصَر القصائد ولاسيما قصائد المدح لم ترد في شعره إعتباطاً وانما هي مستمدة من قضية نقدية أثارت زوبعةً بين النقَاد القدامى تجلّت في مسألة المفاضلة بين القِصَر والطول في القصائد لأن منها(ما يقصد فيه التقصير ومنها ما يقصد فيه التطويل)(٢)، فممن قال بضرورة التقصير الجاحظ بقوله:(وقال شعبة: كان سماك ابن حرب اذا كان له الى الوالي حاجة، قال فيه أبياتاً ثم يسأله حاجته)(٣) ومنهم ابو هلال العسكري في كتاب الصناعتين حين قال:(وقيل لبعضهم: لم لا تطيل الشعر. فقال حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق).(٤). ومنهم ابن رشيق القيرواني الذي تحدّث عن التطويل إذ أشار عند كلامه في منزلة القصار الى ضرورة التقصير بما نصّه:(وقيل لابن الزبعرى: انك تقصّر

١-ديوان ابن خفاجة، ق/.٩٩
٢-منهاج البلغاء/.٣٠٣
٣-البيان والتبين، جـ٢/٣٧٢..
٤-كتاب الصناعتين/١٩٣.

أشعارك، فقال: لأن القصار أولج في المسامع، وأجول في المحافل)(١).

أما عن التطويل فقد وقف عنده النقاد القدامى إذ أدلى كلٌّ منهم بدلوه فشرطوا للتطويل ما ينبغي ان يلتزم به معه، هذا ابن رشيق في موقف آخر يقول:(سُئِلَ ابوعمرو بن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ فقال: نعم ليُسمع منها)(٢) فألاطالة للاستماع.

اما أسامة بن منقذ فيرى ضرورة الاهتمام بحسن اختيار مكان التطويل فيقول:(استعمل التطويل في مكانه، والتقصير في مكانه، فقد قيل: ان الايجاز اذا كان كافياً كان التطويل غثاً، وان كان التطويل واجباً كان التقصير عجزاً)(٣). وهذا القرطاجني هو الآخر يربط بين الطول وتعدد الاغراض فيقول:(فأما المقصّرات فأن القول فيها اذا كان منقسماً الى غرضين لمْ يتّسع المجال للشاعر لأن يستوفي أركان المقاصد التي بها يكمل التئام القصائد.... فأما المتوسطات والمطّولات فالمجال فيها متّسع لما يراد)(٤) ويبدو واضحاً ان التقصير لا التطويل هو الذي

عناه ابن خفاجة في سنّته التي سنّها ولاسيما في قصائد المدح اتصالاً بما أجمع عليه غير قليل من القدامى ذاهبين الى ضرورة التقصير في عدد أبيات القصيدة.

هذا ابن رشيق يؤكد اهمية تقليل عدد الابيات اذ يقول:(ورأيت عمل البحتري - إذا مدح الخليفة - كيف يقلُّ الابيات،ويبرّز وجوه المعاني ،فأذا مدح الكتّاب عمل طاقته، وبلغ مراده)(٥) وفي موضع آخر يحكي عن عمارة انّ جريراً جده قال:(يا بني،اذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة،فأنه ينسي أولها،ولا يحفظ آخرها)(٦)ان ما سبق يكفي لأن يكون صورة واضحة عما استند اليه نقد الشعر في البيت التاسع والثلاثين من أُسسٍ نقدية مهمة أثارت نقاشاً واسعاً بين النقّاد آنذاك.ويكرر ابن خفاجة مسلكه هذا في أنموذج آخر من قصيدة مدح(٧)،لاميّة(٨):

ألاهل أطلَّ الامير الأجل   أم الشمس حلّت برأس الحَمَلْ ١

---------------   -----------------

مليك تبسَّم ثغرُ المنى   بمرآه وامتدّ خطوُ الأملْ ٦
يشدُّ اللّثام على صفحةٍ   ترى البدر منها بمرقى زُحَلْ ٧
فلم أدرِ والحسنُ صنوٌ له   أأبدأ بالمدح أمْ بالغزلْ ٨
وها هو والحلمُ في طبعه   هزبرٌ إذا ما حَمَى أو حَمَلْ ٩

--------------   -----------------

والاّ فَثمَّ جوادٌ يعبُّ   وفصلٌ يهبُّ إذا سُلَّ صلْ ٤١
وكلُّ حياةٍ إلى منتهى   أجلْ ولكلِّ حِمامٍ أجَلْ ٤٢

إذ ينقد مدحته هذه في البيت الثامن لا بأسلوب إصدار الاحكام المستندة الى جملة من الاوصاف العامة وانما بأسلوب يعتمد أُسساً نقدية.فالشاعر يطرح قضية نقدية في البيت الثامن ولا أدلَّ على ذلك من انه يقف حائراً يتجاذبه طرفاها فهو لا يعرف أيهجم على غرضه

١-العمدةجـ١/.١٨٧
٢-المصدر نفسه،جـ١/.١٨٦
٣-البديع في نقد الشعر/.٢٩٧
٤-منهاج البلغاء/.٣٠٣
٥-العمدة،جـ٢/.١٢٨
٦-المصدر نفسه،جـ٢/.١٢٨
٧-قالها:(يمدح الامير أبا إسحاق - أيده الله - ويذكر ما كان من افتتاحه لقورية ونكول ابن رذمير عن تداركها بعقب ما شرع في ذلك).ديوان ابن خفاجة/١٠٢.
٨-ديوان ابن خفاجة،ق/٥٧.

مباشرة أم انه يقدّم له شيئاً من الغزل.

ان هذه القضية شغلت النقّاد القدامى فكانت مثار حديث بينهم،إذ انه معروف لدينا ان منهم من اشار الى ابتداء القصائد بمقدّمات غزلية ولاسيما قصائد المدح حين قال:(وسمعت بعض أهل العلم يقولون ان مقصِّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والاثار فشكا وبكى وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر اهلها الظاعنين عنها إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتجاعهم الكلأ وانتقالهم من ماء الى ماء وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدّة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه ويستدعي به إصغاء الاسماع لأن النسيب قريب من النفوس لايط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء فليس يكاد يخلو أحد من ان يكون متعلقاً منه بسبب وضارباً فيه بسهم حلال أم حرام فأذا علم انه قد استوثق من الاصغاء إليه والاستماع له عقّب ايجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا

النصب والسّهر وسري الليل وانضاء الراحلة والبعير فأذا علم انه قد اوجب على صاحبه حق الرجاء وزمام التأميل وقرّر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه على المكافآت وهزّه على السماح.....)(١).في حين أشار أخرون الى ان من(الشعراء من لايجعل لكلامه بسطاً من النسيب،بل يهجم على ما يريده مكافحةً، ويتناوله مصافحةً،وذلك عندهم الوثب،والبتر،والقطع،والكسع،والاقتضاب،كل ذلك يقال....والقصيدة اذا كانت على تلك الحال بتراء)(٢).ويبدو ان هذا النمط من القصائد الذي يخلو من المقدّمات إنما يأتي به الشاعر حينما تكون بينه وبين الممدوح صلة ما تربط بينهما.ان حيرة ابن خفاجة في مسألة التقديم من عدمه لمدحته هذه لمْ تدم طويلاً حين أفصح عنها في الشطر ألاول من البيت الثامن إذ تعاظمت هذه الحيرة في الشطر الثاني من البيت نفسه عندما لجأ الى استعمال(أمْ)المتصلة المسبوقة بالهمزة قاصداً بها التعيين لأن(أمْ)المتصلة تستدعي أن(تُجاب بالتعيين)(٣).ان هذه الاجابة بتعيين المدح او الغزل لم تكن اجابةً بلفظٍ صريح وانما كانت اجابة بتطبيق عملي إذ ان الشاعر فضّل البدء بالمدح على سواه.لقد مثلت طريقة الشاعر في تناول موضوع القصيدة بالهجوم على الغرض مكافحة موقفاً نقدياً مهمّاً.ان هذا الموقف النقدي يقود الى نقد القصيدة.فالشاعر بتفضيله البدء بالمدح على البدء بالغزل إنما يكون قد اصدر حكماً ايجابياً على وفق نظرته التي استندت الى الرأي الآخر.

١-الشعر والشعراء،طبعة قسطنطينية/٦-٧.
٢-العمدة،جـ١/. ٢٣١
٣-مغني اللبيب،جـ١/٤٢.

"خلاصة بنتائج البحث"

١-إن حجم ظاهرة نقد الشعر متفاوت بين الشعراء الذين اهتموا به.
٢-ليس بالضرورة ان يكون كلُّ شاعرٍ معنيّا بنقد الشعرَبشكل يأخذ بعداً واضحاً بحيث يمثّل ظاهرة بارزة في شعر هذا الشاعر أوٍ ذاك.
٣-لقد تجاذب نقد الشعر اتجاهان أحدهما ذاتي يُعنى بنقد شعر الشاعر وألاخر غيري يُعنى بنقد شعر الغير.
٤-يرتبط نقد الشعر في الغالب بقصائد المدح من ذوات المقدمات والخواتيم أو من التي لا مقدّمات لها.

٥-يكون نقد الشعر الذاتي غير مقصود لذاته في الغالب وانما يقصد من ورائه تحقيق حالة من التكافؤ والنديّة مع الممدوح.
٦-يكون نقد الشعر ايجابياً في القسم الاعظم منه ويكون سلبياً في جانبه الاقل.
٧-اذ كان نقد الشعر يرد في القصائد الكاملة فإنه يرد أحياناً أخرى في المقطوعات.
٨-ان من ملامح نقد الشعر وروده منفرداً في نص شعري كامل أو مختلطاً مع موضوع آخر في نصٍ شعري واحد أيضاً.
٩-ومن ملامح نقد الشعر ايضاً انه يرد في مواضع متباينة في هذا النمط البنائي او ذاك.
١٠-ويكون الاختلاف في أُسس نقد الشعر من ابرز ملامحه إذ ان هناكِ بعضاً منه يستند الى ألأُسس النقدية المعروفة في حين لا يستند بعضه الآخر الى مثل هذه ألأُسس النقدية الأصولية وانما يكون بشكل أحكام عامة مستمدة من موقف قائم على الذوق الشخصي بصورةٍ مرتجلة.

"مصادر البحث ومراجعه"

١-القرآن الكريم
٢-ابن خفاجة الاندلسي، عبد الرحمن جُبير، الطبعة الاولى، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م.
٣-أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي، تحقبق إحسان عباس، الطبعة الاولى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣م.
٤-ازهار الرياض في أخبار عياض، شهاب الدين احمد بن محمد المقّري التلمساني، (ت ١٠٤١هـ) تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الايباري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠م، الجزء الثاني.
٥-الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن سهل بن السّراج النحوي البغدادي، (ت٣١٦هـ) تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي (د ت).

٦-انوار الربيع في انواع البديع ، السيد صدر الدين بن معصوم المدني، (ت ١١٢٠هـ)حققه وترجم لشعرائه شاكر هادي شكر ، الطبعة الاولى ، مطبعة النعمان ، النجف الاشرف ، ١٩٦٩ م ، الجزء الثالث .

٧-البديع في نقد الشعر ، أُسامة بن منقذ، (ت ٥٨٤هـ)تحقيق الدكتور احمد احمد بدوي ، الدكتور حامد عبد المجيد ، مراجعة الأستاذ ابراهيم مصطفى ، الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، الاقليم الجنوبي –الادارة العامة ، ملتزم الطبع والنشرشركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، محمود نصّار الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

٨- البيان والتبيين، للجاحظ، (ت ٢٥٥هـ)تحقيق فوزي عطوي، دار صعب ، بيروت ، ١٩٦٨ م، الجزء الثاني .

٩-تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن ، ابن أبي الاصبع المصري، (ت٦٥٤هـ)الجمهورية العربية المتحدة ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، لجنة إحياء التراث الاسلامي ، تحقيق الدكتور حفني محمد شرف ، مطابع شركة الاعلانات الشرقية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م ، يشرف على اصدارها محمد توفيق عويضة ، الكتاب الثاني .

١٠-التكملة لكتاب الصلة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن الأبار، (ت٦٥٩هـ)تحقيق عزّت العّطار الحسيني ، مطبعة الحسيني ، القاهرة ، ١٩٥٥ م ، الجزء الاول .

١١-دراسات نقدية في الأدب العربي ، الدكتور محمود عبد الله الجادر ، وزراة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة بغداد ، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر ، الموصل ، ١٩٩٠ م .

١٢-ديوان ابن خفاجة، تحقيق سيد غازي، الطبعة الثانية ، منشأة المعارف ، الاسكندرية، ١٩٧٩ م

١٣-شرح التلخيص ، للشيخ اكمل الدين محمد بن محمد بن محمود بن احمد البابرتي ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد مصطفى رمضان صوفية ، الطبعة الأولى ، طرابلس ، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية ، ١٩٨٣ م، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان .

١٤-الشعر والشعراء، لابن قتيبة، (ت ٢٧٦هـ)الطبعة الأولى، قسطنطينية ، عالم الكتب، بيروت

١٥-الصحاح في اللغة والعلوم تجديد صحاح العلامة الجوهري، المصطلحات العلمية والفنية للمجامع والجامعات العربية، المجلد الثاني، تقديم العلامة الشيخ عبدالله العلايلي، اعداد وتصنيف نديم مرعشلي، اسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، بيروت، (د ت).

١٦-طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين، أبو عبدالله بن سلام الجمحي البصري، (ت٢٣٢هـ)طبعت هذه على نسخة خطية قديمة وقوبلت على نسخة طبع أوربا.

١٧-العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي(ت ٤٦٥هـ) تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الرابعة ، بيروت ، دار الجيل للنشر والتوزيع ، ١٩٧٢ م ، الجزء الاول ، والجزء الثاني .

١٨-عيار الشعر، أبو الحسن محمد بن احمد بن طباطبا العلوي، (ت ٣٣٢هـ)تحقيق الدكتورعبدالعزيز بن ناصرالمانع ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٩٨٥ م .

١٩-الفلسفة في الاسلام دراسة ونقد ، الدكتور عرفان عبد الحميد ، ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب ، دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بغداد .

٢٠-الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، الدكتور شوقي ضيف ، الطبعة الحادية عشرة ، دار المعارف ، القاهرة .

٢١-في الشعر العباسي الرؤية والفن ، الدكتور عز الدين اسماعيل ، الطبعة الثانية ، مطبعة القاهرة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٨٠ م ، دار المعارف .

٢٢-قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، الطبعة السادسة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨١م .

٢٣-قلائد العقيان في محاسن الأعيان، الفتح بن خاقان، (ت ٥٣٣هـ)قدّم له محمد العنابي ، دار الكتب الوطنية ، تونس ، ١٩٦٦ م ، القسم الرابع .

٢٤-كتاب الصناعتين الكتابة والشعر،تصنيف ابي هلال بن عبدالله بن سهل العسكري،(ت ٣٩٥هـ)تحقيق،الدكتور مفيد قميحة ،الطبعة الثانية ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،١٩٨٩ م .

٢٥-كتاب الطراز،المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز،يحيى بن حمزة بن على بن ابراهيم العلوي اليمني،(ت ٧٤٩هـ)مطبعة المقتطف ،مصر ، ١٩١٤ م،الجزء الثالث.

٢٦-كشف المشكل في النحو،علي بن سليمان الحيدرة اليمني،(ت ٥٩٩هـ)تحقيق الدكتور هادي عطية مطر الهلالي ،وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ،إحياء التراث،الطبعة الاولى ،مطبعة الارشاد ،بغداد ،١٩٨٤ م ،المجلد الثاني ،الجزء الثاني .

٢٧-مغني اللبيب عن كتب الأعاريب،ابو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري المصري،(ت ٧٦١هـ)حققه وفصّله وضبط غرائبه محمد محيي الدين عبد الحميد،مطبعة المدني،القاهرة،الجزء الاول .

٢٨-منهاج البلغاء وسراج الادباء ،صنعة أبي الحسن حازم القرطاجني،(ت ٦٨٤هـ)تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ،المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ،تونس ،١٩٦٦ م.

٢٩-الموازنة بين شعر أبي تّمام والبحتري لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي،(ت ٣٧٠هـ)تحقيق السيد أحمد صقر ،الطبعة الرابعة ،مطابع ٢ ،دار المعارف ،القاهرة .

٣٠-نظرات جديدة في الفن الشعري ،ابراهيم العريض ،الطبعة الثانية ،مطبعة حكومة الكويت ،الكويت ،٤٨-١٩٤٩ م ،الجزء الثاني .

٣١-نفح الطيب من غصن الاندلسي الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب،احمد بن محمد المقري التلمساني،(ت ١٠٤١هـ)تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ،الناشر دار الكتاب العربي،بيروت ،لبنان ،الجزء الخامس .

٣٢-النقد الأدبي ،احمد أمين ،الطبعة الرابعة ،مطابع دار الغندور ، بيروت ،١٩٦٧ م،الناشر دار الكتاب العربي ،الجزء الاول .

٣٣-النقد الأدبي الحديث ،محمد غنيمي هلال ،دار نهضة مصر للطبع والنشر ،القاهرة .

٣٤-نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر،(ت ٣٢٠هـ)تحقيق كمال مصطفى ،الطبعة الثالثة ،مطابع الدجوي ،القاهرة –عابدين ،١٩٧٨ م.

٣٥-نهاية الأرب في فنون الأدب ،شهاب الدين بن احمد بن عبد الوهاب النويري،(ت ٧٣٣هـ)نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب مع استدراكات وفهارس جامعة ،وزارة الثقافة والارشاد القومي – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ،مطابع كوستاتوماس وشركاه ،القاهره ،السفر السابع .

٣٦-همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية ،جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي،(ت ٩١١هـ)عُني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين الغّساني ،دار المعرفة للطباعة والنشر ،بيروت ،الجزء الثاني .

٣٧-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،ابن خلِكان،(ت ٦٨١هـ)تحقيق،إحسان عباس، دار صادر،بيروت – لبنان ،الجزء الأول .